إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات **فبراير ٢٠٢٢ م**

المحبة الإلهية

يقول الشيخ الروحاني: "أولئك الذين أشرقت عليهم بشعاع من حبك لم يحتملوا السكنى بين الناس. بل ألقوا عنهم كل حب جسداني وتغربوا عن كل شيء في طلب المحبوب. نزعوا كل أفراحهم وذهبوا يلتمسون طريق الحبيب بالدموع. بكوا لما وجدوا أنفسهم في الطريق غير مستأهلين لجمال المحبوب.. نفضوا كل لذة جسمية، ونبذوا كل تمتع بشري، وأحبوا الشقاء والتعب، ليحننوا قلب الحبيب عليهم! تركوا الأب والأم والأخ والصديق، وسعوا خلف الغني بحبه لأنهم أدركوا أن في قلبه لهم حباً كثيراً وفي محبته لهم عزاء يفوق كل عزاء! ساعة أن أدركوا شهوة حب الوحيد ما صبروا أن يبقوا في أفراح العالم لحظة، ولما لم يجدوا عندهم شيئاً يليق بتقديمه إليه قدموا ذواتهم بالحب على مذبحه، وأسلموا أجسادهم حتى الموت فرحين إذ وجدوا شيئاً يقدمونه إليه!

يجرون في طريق الأحزان بلا شبع، ويسرعون حاملين تعاذيبهم. صلبوا الأعضاء مع الشهوات مسرورين، وشربوا مرارة المر متلذذين. آه منك أيها الحبيب! لقد سلبت منهم كل شيء حتى ذواتهم فلم يشعروا أنهم أحياء بل المسيح هو الحي فيهم. حينما تحيط بهم الشدائد من كل جهة لا يرغبون فيما يعينهم على الخلاص بل يطلبون المزيد مع قوة للإحتمال من أجل المحبوب!

هؤلاء سكروا بالحب، ولما سمعوه يقول: "طوبى للباكين الآن" لم يكفوا عن البكاء! من هذا الذي اشتعل بالحب فانشق قلبه وخرج منه ينبوع مياه الحياة؟ فلما لم تحتمله ركبتاه في الصلاة خر على وجهه، وكلما قام سقط، ومن حرارته انفلقت مقلتاه فخرجت منها ينابيع دموع ملتهبة أحرقت الخدود بحرارتها وانحدرت على الأرض فغسلت لعنتها.

إيه أيها الحب الإلهي! رفعت النفس حتى أجلستها في نور خالقها وطهرتها حتى تشبهت بسيدها، فاستأنست الوحوش بها وإذ رأت فيها صورة خالقها لم تكف عن أن تستنشق رائحته. وليست الوحوش وحدها هي التي خضعت لها، بل والشياطين أيضاً فزعت لما رأت النفس مستنيرة بالحب، وولت لما رأت فيها صورة سلطان الله"[٤]

---

[٤] . كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية – القمص متى المسكين ص. ١٠٩-١١٠

هذه هي النفوس التي ذاقت محبة الله، فهي لم تعد مرتبطة بأي شيء أرضي، وإذا طُلب منهم التضحية بأنفسهم مئات المرات في اليوم من أجل محبة الله فإنهم يفعلون ذلك. نحن كرهبان عرائس لعريسنا السماوي، وهذا يعني أنه يجب أن تكون لدينا علاقة داخلية مع الله. "فكما أن الحديد، والرصاص والذهب، أو الفضة، حينما تلقى في النار تنصهر، وتتغير من صلابتها الطبيعية إلى قوام لين، وطوال اقامتها في النار تستمر منصهرة ومتغيرة عن تلك الطبيعة الصلبة، بواسطة شدة حرارة النار، كذلك النفس التي انكرت العالم وثبتت شوقها نحو الرب وحده، بتفتيش كثير وآلام وصراع النفس، وتداوم على انتظار الرب انتظاراً غير منقطع بالرجاء والايمان، والتي قد نالت تلك النار السماوية، نار اللاهوت، ونار محبة الروح، فهذه النفس تنفك حينئذ بالحقيقة من كل محبة العالم وتنطلق حرة من كل فساد الأهواء وتطرح كل شيء من نفسها وتتغير من عادتها الطبيعية وصلابة الخطية، وتعتبر كل الاشياء بلا قيمة بالمقارنة مع العريس السماوي الذي قبلته، مستريحة في حبه الشديد الذي يفوق الوصف. واقول لكم بالحقيقة انه حتى الأخوة المحبوبين جداً الذين تبصرهم هذه النفس بعينها، إذا أعاقوها عن تلك المحبة فانها تتحول عنهم. لأن حياة النفس وراحتها هي في تلك العشرة الخفية الفائقة الوصف مع الملك السماوي. لأنه أن كانت شركة المحبة الأرضية تتسبب في مفارقة الإنسان لأبيه وأمه وأخوته بل وكل الأشياء تبتدئ تصير في نظر الزوجين خارجة عنهم، ورغم انهم يستمرون يحبونهم فإنهم يحبونهم محبة أكثر سطحية، بينما يكون انشغال الإنسان كله موجهاً نحو علاقته بعروسه - لذلك يقول الكتاب "من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بإمرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً" (تك٢:٢٤)، فأقول أن كانت المحبة الجسدية تجعل الإنسان ينفك من كل محبة أخرى فكم بالأحرى جداً أولئك الذين حسبوا أهلاً للدخول حقاً في شركة الروح القدس، ذلك الروح السماوي المحبوب، ينفكون من كل محبة عالمية ويصبح كل شيء آخر عديم القيمة بالنسبة لهم، لأنهم غمروا بشهوة سماوية وصاروا بكليتهم في ألفة وانسجام معها. حسناً يا أخوتي الأحباء، فحينما توضع مثل هذه الخيرات أمامنا وقد وعدنا الرب بمثل هذه المواعيد العظيمة، فلنطرح عنا كل العوائق ونهجر كل محبة العالم، ونعطي أنفسنا لذلك الصالح الوحيد بسعي واشتياق، لكي نصل إلى ذلك الحب الذي لا ينطق به أي محبة الروح التي أوصانا بخصوصها القديس بولس حاثاً إيانا أن نجد في طلبها قائلاً: "اتبعوا المحبة" (١كو١٤:١) لكيما نتغير من قساوتنا بواسطة يمين العلي، ونأتي إلى الحلاوة والراحة الروحانية، بعد أن ننجرح بالمحبة العنيفة، محبة الروح الالهي. إن الرب محب جداً للإنسان وبرحمته يبقى في انتظار أن نتحول تحولاً كاملاً إليه ونتحرر من كل الاشياء المضادة. وبالرغم من اننا في جهلنا العظيم، وحماقتنا وميلنا إلى الشر، نبتعد عن الحياة ونضع عوائق كثيرة في طريقنا، غير راغبين أن نتوب حقيقة، لكنه هو مع ذلك مملوء بالحب والشفقة علينا، ويطيل أناته إلى أن نتوب ونأتي اليه، ونستنير في انساننا الباطن لكي لا تخزى وجوهنا في يوم الدينونة.

فإن كان الأمر يبدو لنا صعباً بسبب مشقة ممارسة الفضيلة، ويبدو أكثر صعوبة بسبب مشورات العدو الغادرة، فانظروا احشاء رحمته وطول أناته من نحونا وهو منتظر رجوعنا، وحينما نخطئ فهو يمسك يده، في انتظار توبتنا، وحينما نسقط، لا يستحي أو يخجل من قبولنا واحتضاننا ثانية، كما يقول النبي "هل يسقطون ولا يقومون أو يرتد أحد ولا يرجع" (أر٨:٤) فلنكن فقط صاحين متيقظين، ولنا نية صالحة أكيدة، ولنتحول حالاً باستقامة ونطلب منه المعونة وهو مستعد أن يخلصنا. وهو يتطلع وينظر إلى ارادتنا ورغبتنا في الرجوع إليه برغبة حارة بأقصى طاقة عندنا، ويتطلع إلى الايمان والغيرة النابعة من القصد الصالح، وأما نجاح المسعى كله فهذا هو عمله الخاص، لذلك فلنسعىن أيها الأحباء كأولاد الله، تاركين جانباً كل انشغال، واهمال وتكاسل، ونتشجع ونكون مستعدين لاتباعه. ولا نتأخر من يوم إلى يوم، غير ملاحظين إلى أي مدى تجرحنا الخطية. إننا لا نعرف متى يأتي وقت انتقالنا من الجسد. إن المواعيد المعطاه والمقدمة للمسيحيين هي مواعيد عظيمة ولا ينطق بها، عظيمة جداً حتى أن كل مجد وبهاء السماء والأرض وكل زينة أخرى بكل نوع وكل كنوز وجمال وبهجة الأشياء المنظورة لا تساوي شيئاً بالمرة بالنسبة للايمان والكنز الذي لنفس واحدة. فكيف نستطيع إذن أن نرفض بقلوبنا قبول مثل هذه الدعوات والمواعيد من الرب ونأبى المجيء إليه وتخصيص نفوسنا له، منكرين كل شيء آخر "حتى نفوسنا ايضاً" (لو١٤:٢٦) كما يقول الإنجيل، وأن نحبه وحده وليس شيء آخر معه، ولكن بالرغم من كل هذه الاشياء، والمجد العظيم الذي قد أعطى، وبالرغم من كل تدبيرات الرب منذ أزمنة البطاركة والأنبياء - كم من مواعيد عظيمة قد أعطيت، وما أكثر النصائح التي قدمت، وما أعظم الشفقة التي أظهرها لنا السيد منذ البداية!

وأخيراً، في مجيئه الخاص بيننا هنا برهن على محبته التي لا يعبر عنها من نحونا، بصلبه لأجلنا، ليحولنا وينقلنا إلى الحياة - وأما نحن فلا نزال غير راغبين في ترك مشيئتنا وترك محبة العالم وترك ميولنا وعادتنا الرديئة. وبهذا نبرهن على أننا قليلي الإيمان، أو عديمي الإيمان، وبالرغم من هذا كله فإنه لا يزال محباً رحيماً حافظاً إيانا في الخفاء ومحتضناً لنا، ولا يسلمنا بحسب آثامنا - إلى سلطان الخطية إلى الأبد، ولا يدعنا نهلك بغرور العالم، بل في رحمته العظيمة وطول أناته يجعل نظره مثبتاً علينا في انتظار اللحظة التي نرجع فيها نتحول اليه"[٥].

"طوبى لمن يثبت عينيه عليك باستمرار يا فردوسي الذي يظهر لي في داخلي! يا شجرة الحياة، أنت تلهب قلبي في كل لحظة بالرغبة فيك، وتغير طلعتي بقوة حبك، ممسكاً بفكري في دهشة من أشعة جمالك. طوبى للذي يبحث عنك في نفسه دائماً. طوبى لمن يحمل في قلبه ذكراك في جميع الأوقات، لأن نفسه أيضاً تسكر من حلاوتك! طوبى لمن يعاينك باستمرار داخل نفسه، لأن قلبه يستنير لكي يرى الأشياء الخفية. طوبى لمن يبحث عنك في كيانه، لأن قلبه يشتعل بحرارة نارك، ويحترق لحمه مع عظامه

[٥] . عظات القديس مقاريوس – العظة الرابعة

بغيرة مُطهرة. طوبى لمن تصمت أفكاره بالتفكير فيك، طوبى لمن تحترق خدوده بدموع حبك، لأنها بقطراتها ترطب أراضي العقل حتى تنتج ثمار الفرح التي لا يموت من يتناولها. ليت حبه يكون فيك دون انقطاع. هل ترغب في أن يكون هذا الحب ملتهباً باستمرار في روحك؟ أزل حب العالم منه. هل تتوق إلى أن يكون مسكنك معه؟ أخرج من العالم كما من الرحم وأنظر بعدئذ فسوف ترى العالم الحقيقي، لأن المسيح لا يقدر على السكنى مع هذا العالم. أتوسل إليك، استمع إليه عندما يعلن لك: أنا لست من هذا العالم. هل ترغب في رؤية انعكاسات جمال الثالوث المقدس في روحك؟ احفظ وصايا المسيح. لأنه يقول: من يحفظ وصاياي يثبت في محبتي. وعند إتمام الوصايا في النفس يقول أنه سيأتي ويصنع مسكناً مع أبيه. وهناك سوف يظهر ذاته. أيضاً يقول عن أصدقائه أنهم ليسوا من هذا العالم والعالم يبغضهم. لأن إتمام الوصايا هو الصليب، أي تجاهل ونسيان ملذات العالم، والشوق المتلهف والرغبة الجادة في الرحيل في قلب الحب، كما هو الحال مع القديس بولس. إنني أقول بثقة تجاه الله أنه حقاً عندما يتعرى العقل من العالم، فإنه يلبس المسيح. إنه إذ يتحول بعيداً عن الاهتمام بشؤون العالم، يلتقي الله حيث تقطع النفس عاداتها الدنيوية.

إيه أيها المسيح الذي دفع دمه الطاهر الدين الذي استدانت به الإرادة الحمقاء. افتح عيون أذهاننا لنعرف أين نمضي. ليت نورك، الذي مثل الشمس ينير أجنادك المقدسة، يحضرني إليك. ليت روحك يا سيدي يضعني وسطهم هنا على الأرض وفي عالم النور. ليت روحك يعلمني لغتهم حتى أسبح معهم تسبيحاً لك غير مسموع. اخلقني يا سيدي كخليقة جديدة تشبه جمالك فأنسى طبيعتي السابقة. المجد لفيض حبك غير الموصوف! بابك مفتوح يا سيدي ولا أحد يدخل. مجدك معلن ولا أحد يتأمل فيه. نورك يشرق في العيون ونحن نرفض أن نعاين. يدك اليمنى ممدودة لتعطي ولا أحد يأخذ. أنت تلاطفنا بإطراءات ولا أحد يطيع. أنت تخيفنا برعب ممزوج بحنان ونحن لا نهرب منك. إيه أيها الإله الصالح، إشفق على بؤسنا. يا خالقنا الحلو، إجبر كسرنا. يا أبانا المملوء رحمة، إقنعتا أنت بنفسك وإغلبنا واجذبنا إلى قربك، لأننا لا نريد أن نتوسل إليك. أخرج نفوسنا من السجن الذي سجننا فيه أنفسنا إلى نورك الحقيقي، حتى لو كنا غير راغبين في ذلك. ليت قوتك، يا سيدي، تسود علينا وتنقذنا من الغرق الذي نتجه نحوه! أزل، يا سيدي، من أمام عيني كل الحُجب التي تظلم عيني النفس فلا ترى نورك الحقيقي. ليتنا نقف جميعاً في هذا النور بوجوه مكشوفة، وليتنا نثبت في الشوق والبهجة التي لجمالك وحبك إلى الأبد. آمين"[٦].

٦. الشيخ الروحاني